
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

"الحركة" والطاعون في مغرب القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر

محمد الأمين البزاز
كلية الآداب، الرباط

"واعلم أن هذا المرض يأتي المغرب بعد زمان نحو سبعين عاما، ويمكث أعواما، ومدة كثيرة، عشرة أعواما، أكثر أو أقل، بخلاف البلاد المشرقية فإنه لايبطئ عنها، لكن يرتفع في مدة أيام، لذلك استأنسوا به، ولايخافون منه جدا كأهل المغرب. ولكونه غير مألوف في البلاد المغربية، لاسيما في البوادي، يخاف الناس منه جدا، أو يحمل لهم فزع كثير من قربه وقرب موضعه، ويقل مباشرة المرضى به عندهم، ويصعب عليهم معاملة أهله حتى بالبيع، وتناول متاعهم وأكل طعامهم، فيحمل لهم بسببه فتنة عظيمة يقعون فيها، فيضيع ما حرم من حفظ المرضى، ودفن الموتى، وإصلاح الأحوال، وترك الجماعة والجمعة، وتعليم العلم، وصلة الرحم، وعيادة أهل الأمراض، والقيام على الأولاد اليتامى والصغار، وسقي البهائم وعلفها، كل ذلك بسبب شدة الخوف من هذا المرض. وغالبهم يخرجون من القرى والمساكن عند وقوعه لما يدركهم فيها من الفزع والوحشة والخوف..."[1]

بهذه العبارات يتحدث الفقيه السوسي سيدي محمد بن يحيى الشبي عن الطاعون، وهو الوباء الذي عرك المغرب في العصور الماضية، وكان في مقدمة الكوابح المالتوسية التي حالت دون نموه الديموغرافي، وحكمت على هياكله بالثبات والركود لم يكن ظهور هذا الوباء يخضع لإيقاع معين، فإذا كان سيدي محمد الشبي يشير في المقطع المذكور أعلاه إلى تجدد ظهوره بعد كل سبعين سنة، فإن محمد الحسن الوزان، المعروف بليون الإفريقي، لاحظ منذ القرن السادس عشر، أنه كان يظهر على رأس كل عشر

[1] سيدي محمد بن يحيى الشبي السوسي، "رسالة في الطاعون"، مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط (خ.ع.ر)

المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، ص. 343-356.

سنوات، أو خمس عشرة سنة، أو خمس وعشرين سنة[2]. أما إذا تتبعنا مراحل ظهوره خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فنلاحظ أنه اكتسح البلاد أربع مرات وبفوارق زمنية متباينة. فقد ظهر في السنوات 1742-1744، وهذا بعد مرور أزيد من نصف قرن على آخر هجوم له (1678-1680)، ثم بعد ثلاث سنوات، عاد إلى الظهور (1747-1751)، ونراه بعد ذلك يحتجب لمدة طويلة أخرى تناهز نصف قرن، بحيث لم يظهر إلا في السنوات 1798-1800، ليعود مرة أخرى بعد حوالي ثمانية عشر سنة (1818-1820). وهذه العودة الأخيرة كانت آخر زيارة له للبلاد، إذ أنه لم يظهر فيها من جديد إلا في بداية القرن العشرين.

كان هذا الوباء يجد عمله ميسورا لأنه غالبا ما تزامن مع مجاعات طاحنة ولأن المجتمع المغربي، كغيره من المجتمعات الإسلامية، وحتى الأوربية، كان مايزال أعزل تماما أمام ضرباته، وكانت الوسيلة الرئيسية التي يلجأ إليها الناس للتوقي منه، هي التي أشار إليها الفقيه سيدي محمد الشبي في المقطع المذكور أعلاه، وهي الفرار. كانت هذه الوسيلة من أهم العوامل المساعدة على امتداد نطاق الوباء. على أن هناك عوامل أخرى كانت تزيد من ديناميته وانتشاره، لعل من أخطرها تلك "الحركات" التي كان يجردها المخزن إلى هذه الجهة أو تلك من مملكته لتوطيد سلطته، وإخضاع القبائل المتمردة، والتي لم تكن تتوقف، في الغالب، حتى في السنوات الموبوءة.

هذا العامل الأخير يشكل الجانب الأول من هذا العرض، وسأحاول تجسيده من خلال أمثلة ملموسة ترجع إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لأبرز على ضوئها مدى العلاقة بين الأحداث السياسية وامتداد جغرافية الوباء في مغرب ذلك العصر. أما الجانب الثاني من العرض، فسأخصصه لتأثير الطاعون في بعض الأحداث السياسية، وذلك من خلال رصد انعكاساته على "حركتين" قام بهما السلطان مولاي سليمان (1772-1822) إبان طاعون 1800-1818.

[2] حسن الوزان "وصف إفريقيا"، تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1980، ج1، ص. 68.

1. طاعون 1742-1744 والصراع حول السلطة[3]

الاجتياح الأول والأكيد للطاعون، الذي حدث في الفترة التي نحن بصددها، يرجع إلى السنوات 1742-1744 ؛ وقد يكون التجار هم الذين أدخلوه من الجزائر عبر المحور القاري الرابط بين وجدة وفاس، مرورا بتازة التي يذكر القادري أن الوباء ظهر أول ما ظهر فيها[4]. مهما يكن، فقد اكتسح الوباء شمال البلاد خلال فصل الربيع، ضاربا أهم التجمعات الحضرية، كفاس، ومكناس وزرهون ووزان والقصر الكبير وتطوان وطنجة وسلا والرباط، وبعد موجة الفوران الربيعية، دخل في طور الانحسار مع حلول فصل الصيف. إلا أنه عاد إلى الظهور في فصلي الخريف والشتاء وهو أشد ما يكون فتكا، كما أنه واصل زحفه في السنة التالية، ضاربا الجهات التي أخطأها سابقا. وإلى غاية غشت 1743، كان مايزال ينشر ويلاته، ولم ينقطع إلا في حدود صيف 1744.

عندما ظهر هذا الطاعون كانت البلاد تشكل بنية استقبال مواتية أمامه : فإلى آثار المجاعة السابقة، التي ألمت في السنتين 1737-1738[5]، والتي أضعفت الكيان البيولوجي للسكان، كان الصراع على أشده حول السلطة، وكان المتنافسان عليها، المولى عبد الله والمولى المستضيء، قد عبأ لخوض غماره وحدات عسكرية متعددة الأصول : ضم جيش الأول الأودايا، وأمازيغيي زمور، وگروان، وأيت دراسن، وأيت أومالو، والحياينة، وأولاد جامع، بالإضافة إلى فرقة العبيد المناصرة له. أما جيش المولى المستضيء، فقد ضم أساسا عبيد مشرع الرملة بالإضافة إلى جيش حليفه، باشا تطوان، أحمد بن علي الريفي. كان هذا الأخير يتحرك من تطوان وطنجة في اتجاه فاس بأعداد كبيرة من الجند تضم أهل جبالة، والريف، والفحص، والخلط، وقد بلغ عدد قواته في إحدى هذه "الحركات"، حسب ما يخبرنا بذلك محمد الضعيف، 50.000 جندي بالإضافة إلى 15.000 من الجبليين.

هذه الوحدات العسكرية الكبيرة قدمت أرضية مناسبة للطاعون، وتحولت مراكز تجمعاتها إلى مستودعات للعدوى. كان مشرع الرملة، وهو

---

3 حول هذا الطاعون، انظر دراستنا، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1992، ص. 32-37.

4 محمد بن الطيب القادري : "نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني"، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، الرباط 1986، ج4، ص 38.

5 حول هذه المجاعة، انظر دراستنا، تاريخ الأوبئة والمجاعات، م.س، ص. 32-41.

أهم تجمع عسكري لجيش العبيد، من بين المراكز الأولى التي أصيبت. هذا ما يفهم من رواية محمد الضعيف التي تقول : "فابتدأهم الوباء في هذه السنة"[6]. أما خسائره فكانت فادحة، ولو أن المعاصرين يبالغون في تقديرها. تقول مراسلة من الرباط بتاريخ 6 نونبر 1742 : "إن العبيد كانوا يموتون بالآلاف منذ شهرين، ومازال الوباء يحصدهم حاليا على الأقل بالمئات"[7]. يستفاد من المراسلة نفسها أن قائد الجيش قرر، بعد أن رأى هذا الموت الذريع في معسكره، الخروج متذرعا بتوجيه حملة على فاس ليطرد منها المولى عبد الله، لكن تبين فيما بعد أنه لم يخرج إلا فرارا من الوباء، مع ذلك كان الموت يلاحقه في تنقلاته، وقدر عدد ضحايا جنده بعشرين إلى ثلاثين جنديا في اليوم[8]. وتفيدنا مراسلة أخرى مؤرخة في 16 أكتوبر 1742 بأن الجيش الذي عبأه باشا تطوان لمحاربة المولى عبد الله كان يخسر في كل يوم خمسة وعشرين إلى خمسين ضحية بالوباء، وتضيف أن فرقة العبيد المشايعة للمولى عبد الله تعرضت للهلاك[9].

إذا كان التجار إذن هم الذين أدخلوا الطاعون إلى المغرب، فإن وحدات المقاتلين هي التي لعبت أهم دور في انتشاره : أولا، على طول محاور تنقلاتها ؛ وثانيها، بعد عودة أفرادها الموبوئين إلى مواطنهم الأصلية. وإلى هذا ينبغي الإشارة إلى الدور التقليدي الذي لعبته هذه الحروب، والمتمثل في أعمال النهب والتخريب، والتي أدت إلى تفشي الخوف، واشتداد الغلاء، وانتشار المجاعة، خاصة في فاس التي تعرضت من جديد لمجاعة طاحنة إلى حد أن الكثيرين من سكانها تشتتوا في المدن العمالية بحثا عن لقمة عيش.

2. طاعون 1747-1751 و"حركة" الأمير سيدي محمد بن عبد الله[10]

لم يتمتع المغرب سوى بفترة استراحة قصيرة جدا، إذ عاد الطاعون إلى الظهور منذ منتصف 1747. وعلى ما يظهر، فإن هذا الطاعون الجديد

[6] محمد بن عبد السلام الضعيف، تاريخ الضعيف تحقيق وتقديم أحمد العماري، دار المأثورات، الرباط، 1986، ص. 137.

[7] أوردها : (H.P.J) RENAUD, « Les pestes du milieu du XVIII siècle », Hespéris, 1939, p.299.

[8] م.ن، ص. 299.

[9] م.ن، ص. 298.

[10] حول هذا الطاعون، انظر دراستنا، تاريخ الأوبئة والمجاعات، م.س، ص. 57-60.

كان مجرد ذيل لسابقه الذي ربما يكون قد ترك جيوبا منعزلة بعد انحساره في العام 1744. ومن المفروض أن هذه الجيوب ظلت خامدة مدة ثلاث سنوات لتنشط من جديد في العام 1747. مما يدل على هذا أن نقطة الانطلاق جاءت هذه المرة من الجنوب على عكس الطواعين السابقة التي عادة ما كانت تبدأ من الشمال. وثمة اشارة في "المعسول" تدل على وفاة فقيه بالطاعون في سوس في العام 1160(1747)[11]، في حين لانجد أية إشارة مماثلة في هذا التاريخ لدى القادري أو جعفر الكتاني تهم المناطق الشمالية. وهناك إشارات أخرى في المواصلات الأجنبية يفهم منها أن الوباء ظل متوطنا في السنة المذكورة في أگدير وآسفي وذلك قبل أن يمتد في السنة التالية إلى مركزين جديدين، هما مراكش وتافيلالت.

تلك هي الجيوب الأولى التي انحصر فيها الوباء خلال السنتين الأولتين من ظهوره. والظاهر أنه تميز بضعف ضرباته خلال هذه المدة مما يفسر شحة المعلومات عنه. إلا أنه أخذ تدريجيا في الاحتداد إلى أن بلغ ذروته في العام 1750.

كانت هذه السنة سنة يبس وقحولة تركت صدى عميقا في الحوليات المغربية. في فاس، أقيمت صلوات الاستسقاء ستة عشرة مرة، أولها في صفر 33/1163 يناير 1750، وآخرها في 13 ربيع الثاني/22 مارس. مع ذلك فإن السماء لم تجد بأمطارها إلا في شهر أبريل. استتبع ذلك اشتعال الأسعار، وتفشي المجاعة. فعلى هذا الأساس البيولوجي بسكان يعانون من الجوع كان لابد وأن يجد الطاعون عمله ميسورا. زد على ذلك أن الحروب الأهلية كانت على أشدها. وإلى آثارها التقليدية، انضاف عامل آخر يبدو أنه لعب دورا خطيرا في نشر العدوى، ونعني به خروج "محلة" الأمير سيدي محمد بن عبد الله من مراكش إلى فاس.

كان العبيد قد شقوا عصا الطاعة على السلطان مولاي عبد الله، وخلعوه للمرة السادسة، وأرغموه على الفرار إلى دار الدبيبغ، قرب فاس (صفر 1163/يناير فبراير 1750)، ثم بايعوا ولده وخليفته على مراكش سيدي محمد. وعلى الرغم من امتناع هذا الأخير، استمروا يخطبون باسمه في منابر مكناس وزرهون. فمن أجل إصلاح ذات البين بينهم وبين والده،

---

[11] محمد المختار السوسي : "المعسول" الدار البيضاء، مطبعة النجاح ومطبعة فضالة، 1960-1963، ج7، ص. 31.

خرج الأمير من مراكش، ومر بالشاوية، والرباط، ومنها تابع طريقه إلى المعمورة، ثم عرج على مكناس التي حل بها في أواخر جمادى الأولى 1163/ ماي 1750، ومنها انطلق إلى فاس، ونجح في المهمة التي قدم من أجلها.

إذا كانت وقائع هذه الرحلة لاتهمنا هنا، فإن ما يهمنا، بالعكس، هو الإشارة إلى أن الجيش الذي رافق سيدي محمد، والذي بلغ عدد أفراده 4 000 جندي، شق طريقه عبر جهات موبوءة. فقد كان الطاعون متفشيا في الغرب والشاوية في شتاء 1750، محدثا خسائر كبيرة في الأرواح، في قصر بولعوان، لم ينج منه سوى ثلاثة أشخاص، بينما خر الكثيرون صرعى في المعمورة[12]. لم يكن إذن من قبيل المصادفة أن يشتد وقع الوباء في مكناس وفاس عقب وصول الأمير إليهما، مما أرغمه على التعجيل بعودته. يذكر ابن الحاج في هذا الصدد : "تفاقم الأمر، وحصل للناس الدهش في السر والجهر. وحينما رأى [كذا] سيدي محمد أن الوباء لايزيد في الغرب إلا شدة، رجع لمراكش في أقرب مدة"[13].

بناء على ذلك يمكن القول : إن أهم نتائج الرحلة من المنظور الصحي تنشيط عملية العدوى : أولا، في اتجاه مكناس وفاس، وثانيا في اتجاه مراكش بعد عودة الأمير إليها.

3. طاعون 1798-1800 و"حركة" مولاي سليمان إلى الجنوب[14]

الطاعون الثالث، في الفترة موضوع الدراسة، ظهر في عهد مولاي سليمان في السنوات 1798-1800. وقد انتقل، كما هي العادة، من الجزائر عبر الطريق القاري، بدأ في فاس الجديد منذ نهاية 1798، ثم استشرى تدريجيا، فدخل فاسا البالي في 5 فبراير 1799، وامتد بعد ذلك على نطاق جغرافي واسع : فتفشى في حوض سبو خلال شهري أبريل-ماي 1799، واندلع في الشاوية، ودكالة، وعبدة، والحوز، خلال يونيو-يوليوز، وتوغل في سوس خلال غشت- شتنبر، وواصل زحفه الكاسح، محطما كل الحواجز

[12] RENAUD, op.cit., p. 309-311.

[13] أحمد بن محمد السلمي ابن الحاج، الدر المنتخب المستحسن في بعض مآثر أمير المومنين مولانا الحسن، مخطوطة الخزانة الحسنية بالرباط، رقم 1920، ج8، ص 143.

[14] حول هذا الطاعون، انظر دراستنا، تاريخ الأوبئة والمجاعات، م.س، ص. 85-99.

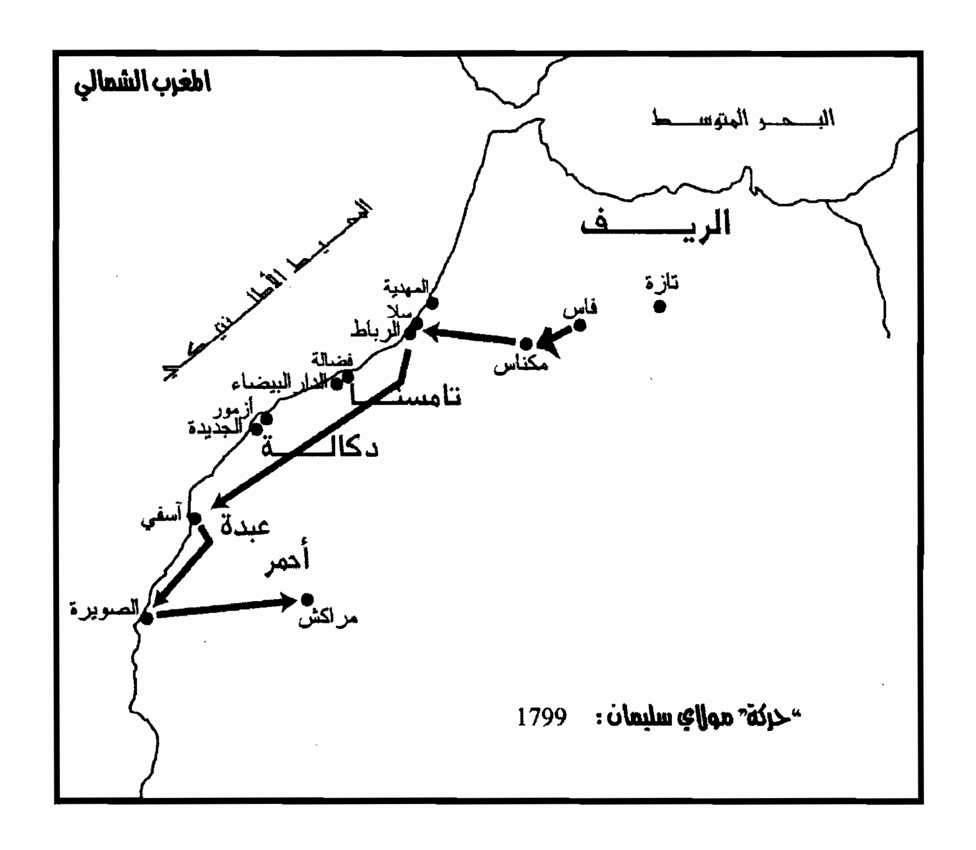
أمامه. وهكذا فقد سرى إلى تطوان وطنجة في شهر نونبر، وتمادى في السنة التالية بين مد وجزر، ولم ينقطع أثره إلا في نهاية 1800.

تزامن هذا الطاعون هو الآخر مع "حركة" هامة قام بها السلطان مولاي سليمان من مكناس إلى الجنوب. وسنقوم بتتبع مراحل سير هذه "الحركة" لنقف على مدى مسؤوليتها في دينامية العدوى.

عندما قرر السلطان الخروج من مكناس لإخضاع قائد عبدة وآسفي، عبد الرحمان بن ناصر، كان الطاعون متفشيا في هذه المدينة. ومع أن هدفه من الحملة هو إخضاع القائد المذكور، فإنه ليس من المستبعد أن يكون قد عجل بخروجه فرارا من الوباء. ذلك ما يمكن أن نستشفه من رواية الفشتالي المتكتمة : "وفي هذه السنة [1799/1213] حرك مولاي سليمان لأرض مراكش ومعه خلق كثير. ولم يكن لسفره دليل ولا موجب"[15]. مهما يكن فقد خرج السلطان في 11 أبريل 1799 على رأس جيش كثيف، بينما كان قائده عياد قد غادر فاسا في اليوم السادس من الشهر نفسه على رأس جيش الأودايا، وكان هذا الجيش موبوءا، وتعرض كثير من أفراده للهلاك. جاء في تقييد محلي في هذا الصدد : "ضرب طاعون 1213 هـ جيش الأوداية الذين ابتدأهم الوباء وأفنى عددا كبيرا منهم"[16].

[15] عبد السلام الفشتالي، تقييد في وباء 1213، في مجموع مخطوط، خ.ع.ر، د 283 ورقة 125.

[16] م ن.



وفي 21 أبريل وصل السلطان إلى سلا والرباط، وكان الطاعون قد سبقه إليهما مع طلائع الجيش، فقد أشير إلى ظهوره بالعدوتين في 18 أبريل. وفي اليوم التالي، اشتد وقعه فيهما، حيث كان يخلف 130 ضحية في اليوم[17]. لذا اضطر السلطان إلى مغادرة الرباط على عجل والفرار في اتجاه الجنوب، مرورا بالدار البيضاء وآسفي. وفي هذه المدينة الأخيرة، سارع ابن ناصر إلى استقباله، مظهرا بذلك طاعته. ومن آسفي انتقل السلطان إلى الصويرة في شهر ماي، ومنها إلى مراكش التي اضطر كذلك إلى اختصار مدة إقامته فيها نظرا لتفشي الطاعون، فخرج في اتجاه مكناس في شهر يوليوز.

---

[17] Nicolas Michel, « Les calamités démographiques et le Maroc (1700-1822) à travers les sources françaises », Maîtrise d'histoire, Paris 1, Centre de Recherches Africaines, 1982-1983, p. 74.

خلال هذه "الحركة" تفشى الوباء في السهول الساحلية والأقاليم الجنوبية ومسؤولية الوحدات السلطانية في انتشاره واضحة، سواء في المصادر المغربية أو الأجنبية. ففي 6 غشت كتب قنصل انجلترة في طنجة يقول : "إن جيش السلطان قد نقل العدوى من فاس إلى الرباط، ثم إلى باقي السهول الأطلنتكية"[18]. من جهته، يخبرنا القنصل البريطاني لجاكسون بأن الجنود، الذين كانوا يتهالكون صرع الوباء، كانوا يدفنون بملابسهم على جناح السرعة لكي تواصل القبائل، التي لم تكن قد تفطنت بعد إلى أمر الطاعون، تزويد الجيش بالمؤن[19]. بيد أن محمد الضعيف هو الذي يقدم لنا أحسن مثال عن تحالف هذه "الحركة" مع العدوى، فيقول : "وارتحل السلطان من عين عتيق لناحية آسفي وذلك في يوم الخميس 29 من ذي القعدة عام 1213 [24 ماي 1799]، وبات في بوزنيقة، وفي كل يوم يموت من جيش السلطان كذا، وكذا، بالوباء، إلى أن قطع وادي أم الربيع، وكأنه نهض بجندين : جند من العسكر، وجند من الوباء، ولم يكن الوباء بدكالة، وعبدة، وأحمر، وغيرهم، حتى دخل السلطان بلادهم"[20].

وكما تسببت "الحركة" في زرع الطاعون في السهول الأطلنتكية والأقاليم الجنوبية، فلا يستبعد أن تكون قد ساهمت، بشكل غير مباشر، في تنشيط حركية العدوى في الأقاليم الشمالية بعد عودة الجنود إلى مواطنهم. فقد كتب قنصل الولايات المتحدة في طنجة في يوليوز 1799 مانصه : "إن طنجة تتمتع بصحة جيدة، لكن يخشى أن ينتقل إليها الوباء بعد عودة الجند الذين كانوا قد غادروا المدينة للمشاركة في "حركة" السلطان إلى الجنوب"[21].

4. طاعون 1818-1820 والحروب الأهلية[22]

لم يعرف المغرب سوى استراحة قصيرة بعد طاعون 1798-1800، إذ عاوده الوباء قبل أن ينتهي عهد المولى سليمان، وذلك في

---

18 M. Al-Mansur, « Political and social development in Morocco under the reign of Moulay Sliman, thèse de Doctorat, Université de Londres, 1981, p 196.

19 أوردها : Michel, op.cit, t.1, p 74

20 تاريخ الضعيف، م.س، ص. 315.

21 وثائق القنصلية الأمريكية سابقا في طنجة، سلسلة T 61، طنجة 24-4-1799.

22 حول هذا الطاعون انظر دراستنا، تاريخ الأوبئة والمجاعات، م.س، ص. 104-119.

السنوات 1818-1820. وعلى عكس الطواعين السابقة، التي غالبا ما كانت تنتقل من الجزائر عبر الطريق البرية، فإن هذا الطاعون سرى عبر الواجهة البحرية بعد عودة الحجاج المغاربة من الديار المقدسة، ونزوسلهم في طنجة في 23 ماي 1818. وقد ذكر الزياني في هذا الصدد :" وفي هذه السنة [1818/1233] بلغنا أن ولدي أمير المومنين مولاي علي ومولاي عمر قدما من الحج ونـزلا بمرسى طنجة، ووجه لهما والدهما مركبا من مراكب الانجليز للإسكندرية، حملهما وأصحابهما الحجاج والتجار منها. ولما نزلوا بطنجة كان ذلك سبب دخول الوباء للمغرب"[23]. وأضاف الناصري : "ولما نزلوا بطنجة، حدث الوباء بالمغرب، فقال الناس إن ذلك بسببهم"[24].

تزامن هذا الطاعون مع تردي الأوضاع السياسية والأمنية جراء انتفاضة الجبليين واستئناف زحفهم التقليدي في اتجاه السهول، كما تزامن مع معارضة رجال الزوايا للمولى سليمان بعد تحريمه المواسم، وبلغت الأوضاع منتهاها من الاضطراب بعد هزيمة السلطان أمام الأمازيغيين في وقعة ظيان (ماي 1819)، وتمرد جيش العبيد والأودايا، وما استتبع ذلك من إقدام المتمردين على خلع السلطان ومبايعة ابن أخيه مولاي إبراهيم.

هذه الأوضاع المضطربة، وما تخللها من حروب أهلية، ساهمت بدون شك في امتداد نطاق العدوى، إلا أن النصوص التي بين أيدينا لاتسمح لنا، هذه المرة، بتقديم أمثلة ملموسة عن ذلك. بالمقابل، فإن هذه النصوص تجعلنا نلمس الانعكاسات السلبية التي خلفها الطاعون على سلطة المخزن بمناسبة "حركتين" قام بهما المولى سليمان : فقد استغل الوباء في "الحركة" الأولى للدعاية السياسية ضد السلطان، بينما ساهم في "الحركة" الثانية في هزيمته في وقعة ظيان.

نبدأ بالتوقف عند "الحركة" الأولى. فقد غادر السلطان فاسا في بداية يوليوز 1818، أي بعد حوالي أسبوعين من ظهور الطاعون فيها، واعتصم في مكناس إلى نهاية دجنبر، مبالغا في اتخاذ الاحتياطات للتوقي من العدوى ؛ ثم خرج من مكناس في اتجاه الرباط. ومع أن الزياني يؤكد أنه

---

23 أبو القاسم الزياني، الروضة السليمانية، مخطوطة، خ.ع.ر. رقم 1275، ورقة 191.
24 أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا الدار البيضاء، 1954، ج8، ص. 133.

ترك الوباء خفيفا لما خرج من مكناس[25]، فإن رواية القنصل الفرنسي سوردو تقول بالعكس، إن عدد الموتى فيها كان يصل وقتذاك إلى150 ضحيا في اليوم[26] بعد قضاء عيد المولد النبوي في الرباط (10 يناير)، انطلقت المحلة السلطانية في اتجاه مراكش التي كانت ما تزال سليمة.

مهما كانت الدوافع التي جعلت السلطان يغير مقرر إقامته من الشمال إلى الجنوب، فإن تنقلاته زمن الوباء لابد وأن تكون قد قوبلت بالامتعاض وسط السكان لأنها تبدو كوسيلة للفرار، وهو الأمر المحظور شرعا، إذ يعتبر خروجا على السنة التي تقرر حتمية المصير الإنساني. ومن ثم أتيحت الفرصة لخصوم السلطان لشجب هذا السلوك والنيل بذلك من صيت صاحبه يقول سوردو في هذا الصدد : "إن الطاعون المتفشي في المغرب يساهم في تزايد السخط بين الناس، وهم مقتنعون بأن السلطان تعمد، إن صح التعبير، إدخال هذا الوباء إلى مملكته. وباستثناء الطلبة، فإن الجميع ينحي عليه باللائمة سيما وقد شاع الخبر بأنه يبالغ في اتخاذ الاحتياطات لوقاية نفسه"[27].

نضيف إلى هذه الرواية شهادة أخرى للكاتب الإسباني كاستيانوس : "إن الفريق الحامل لواء المعارضة رأى في الوباء عقابا أنزله الله بسبب العلائق التي أقامها السلطان مع الدول الأوربية، وخاصة لإبطاله سنة الجهاد البحري وإطلاق سراح الأسرى الأوربيين لديه. وكان شريف وزان الحاج العربي بن علي وراء هذه الدعاية"[28].

يتجلى بكل وضوح أن الطاعون استغل بالفعل وسيلة للدعاية السياسية. ولابأس من التذكير هنا بأن رائد هذه الدعاية الوارد ذكره في النص الأخير هو الذي خلع مولاي سليمان في فاس بالاشتراك مع زعيم الزاوية الدرقاوية مولاي العربي، وزعيم الجبل أبي بكر مهاوش.

ننتقل بعد هذا إلى "الحركة" الثانية، وهي التي قام بها مولاي سليمان لمواجهة زحف الجبليين إلى السهول. ونشير في البدء إلى أن الطاعون أغرى الجبليين بالقيام بهذا الزحف. نعرف أن السهول كانت تشكل دائما مركز جذب القبائل الجبلية حيث يمكنها التوغل في أراض خصبة لتستأثر

---

25 "الروضة السليمانية"، م.س، ورقة 192.

26 وثائق الخارجية الفرنسية، المراسلات القنصلية المغربية، المجلد 26، طنجة 12 يناير 1819.

27 الوثائق نفسها، المجلد 26، طنجة 4 ماي 1819.

28 CASTELLANOS, « Historia de Marruecos », Tanger 1898, p. 502.

بخبراتها وتضمن مراعي خصبة لقطعانها. وواضح أن دوافع هذا الانجذاب كانت تقوى وتشتد في أوقات الكوارث الطبيعية من جذب ومجاعة وانتشار الأوبئة الفتاكة. فليس بغريب، والحالة هاته، أن نجد قبائل الأطلس المتوسط تتكتل من جديد، بقيادة أبي بكر مهاوش، لتحقيق حلمها التقليدي في السهول التي أصبحت تبدو سهلة المنال بعد أن أفنى الطاعون عددا كبيرا من سكانها. ذلك ما أشار إليه الباحث الفرنسي كلمنت بقوله : "في 1818 فتك الطاعون مرة أخرى بسكان المدن والسهول الشمالية، وذلك في أعقاب الموسم الفلاحي المأساوي للعام 1817.والنتيجة أن قبائل بكامها أصبحت في حالة كبيرة من الضعف. وغير قادرة على الصمود أمام الضغوط الجبلية التي كانت عرضة لها، إلا بالاعتماد على الدولة"[29].

أرغمت خطورة هذا الوضع مولاي سليمان على ضرورة القيام بعمل عسكري سريع. وهكذا قام باستعدادات هائلة، على الرغم من كل المصاعب، لتوفير كامل حظوظ النجاح ضد خصوم سبق أن اختبر شدة بأسهم في العام 1805 ثم في العامين 1811 و1812، قرب صفرو وآزرو. ويخبرنا الناصري بالفعل بأنه جمع جيشا من ستين ألف رجل[30]. ثم استدعاء هؤلاء المقاتلين من مناطق مختلفة : فقد ضم جيش السلطان عبيد مكناس، وجنود الحوز، وجيش الأوداية، وعرب فاس، والشراردة، عرب مراكش، كما ضم فرقا من الغرب والخلط وبني مالك، وعناصر أخرى من دكالة، وتامسنا، وتادلا، هذا بالإضافة إلى الوحدات الأمازيغية، وجلها من زمور وآيت أدراسن وآيت يمور المقيمة بمنطقة سيدي قاسم. بيد أن هذه المناطق التي استقدمت منها هذه الوحدات، كانت هي المناطق التي استنزفها الطاعون أكثر من غيرها. يقول الزياني : "وكان الناس في ذلك الوقت في محنة وشدة من الغلاء وارتفاع الأسعار والوباء، والسلطان لاعلم له بزيادته... وكان الواجب على ابن السلطان الخليفة أن يخبر والده بما عليه الناس من فتنة الوباء والغلاء فيعفيهم من الحركة ويأخرها عنهم"

واضح من رواية الزياني أن السلطان أساء توقيت زمن المعركة. وواضح أيضا أن تعبئة الجيش خلفت وقعا سيئا في صفوف رجاله في ذلك الوقت الذي كان الوباء يفتك بهم. وكل هذا يعني أن روح الهزيمة كانت

---

29 J.F. CLEMENT, «Révoltes et répressions au Maroc», in Al ASSAS, n° 13, janvier 1979, pp. 20-40.

30 الاستقصا، م.س، ج8، ص. 124.

تطغى عليهم مسبقا. أما النتيجة، فنحن على علم بها : انهزم الجيش السلطاني شر هزيمة في وقعة ظيان (ماي 1819)، واعتقل السلطان ثم أطلق سراحه في الظروف التي نعرفها[31].

على أن المسألة الغامضة المرتبطة بمعركة ظيان هي الانقلاب المفاجئ في موقف العناصر الأمازيغية في الجيش السلطاني. ذلك أن هذه العناصر خذلت السلطان في اللحظة الحاسمة، وانضمت إلى إخوانها صنهاجة، مما عجل بهزيمة جيشه. هنا يبدو أن الطاعون يمكن أيضا أن يلقي بعض الأضواء الكاشفة.

كانت هذه العناصر الأمازيغية تتكون أساسا من مجموعتين : زمور بقيادة محمد ابن الغازي، وأيت دراسن بقيادة الحسن بن محمد واعزيز ومن بين المجموعة الأولى، نجد بني حاكم، وهم الأجزاء الأكثر تطرفا إلى الجنوب.

استقدمت هذه الوحدات، كما سبق القول، من جهات موبوءة، ومستنزفة بالطاعون، وهذا في الوقت التي كانت معرضة مباشرة لتهديدات الجبليين. فأن تفقد محاربين جددا في المعركة، فذلك من شأنه أن يعود عليها بأسوأ العواقب، لأنها في حالة العودة إلى ديارها بعد المعركة، لن تكون قادرة على الدفاع عن مصالحها. والمقصود بذلك مصالح الأعيان ذوي الاختصاصات في اتخاذ القرار. والأعيان هنا هم قبل كل شيء الملاكون الكبار لقطعان الماشية والخيول. لقد سبق لهؤلاء أن لعبوا ورقة المخزن لتأمين مصالحهم، وطالما أن الظروف كانت تنبئ مسبقا بمصير المعركة، فقد كان لامناص، بالنسبة لها، من اختيار جديد. وهكذا، فإن الانقلاب الذي فسره البعض بالعامل العنصري، لم يكن سوى وسيلة للحفاظ على المصالح المادية في ظل الظروف المتولدة عن الطاعون.

الخاتمة

في خاتمة هذا العرض، أعود إلى تأكيد ما سبق أن قلته في بدايته، وهو أولا، أن "الحركات" كانت تتحول في زمن الطاعون إلى مستودعات للعدوى بتجمعات وحداتها، وتعمل على نشر الوباء بتنقلاتها على طول

---

[31] حول تفاصيل هذه المعركة، انظر الناصري، الاستقصا، م.س، ج8، ص. 134-136.

محاورها، وعن طريقها ترك التاريخ السياسي للفترة، موضع العرض، بصماته على الظرفية الديموغرافية.

ثانيها، أن الطاعون كان خير حليف للقبائل الجبلية إبان "الحركة" التي جردها ضدها مولاي سليمان في العام 1819، والتي انتهت بهزيمته في وقعة ظيان. وهذا يعني أن الطاعون يمكن أن يستغل من قبل المؤرخ كأداة لتعليل بعض الأحداث التي تزامنت مع ظهوره.